البوتقة المكية وأثرها في صهر السكان

دراسة في الجغرافيا التاريخية للهجرة

وتأقلم الجاليات الوافدة إلى العاصمة المقدسة

أ. د. محمد محمود السرياني

قسم الجغرافيا - كلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن

لقد عرفت مكة المكرمة منذ أحقاب تاريخية قديمة قبل عهد إبراهيم عليه السلام. غير أنه من المؤكد أن هجرة إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام يمكن عدها البداية الجليّة لتاريخ مكة، فوجود بئر زمزم، وبناء الكعبة، ساعد على ازدهار المكان، فسكنته القبائل، وأصبح مركزاً تجارياً، بالإضافة إلى كونه مركزاً دينياً. ولم تكن مكة في يوم ما في عزلة جغرافية، فقد مهر سكانها في التجارة.

ولما جاء الإسلام أصبحت مكة المكرمة البلد الحرام قاعدة الإسلام، وقبلة المسلمين، يقصدها الناس للحج والعمرة. ومنذ البعثة النبوية لم ينقطع سيل الهجرة إلى مكة المكرمة من مختلف مناطق العالم الإسلامي. وتنوع المهاجرون، وتعددت أغراضهم، وكانت الأسباب الجاذبة إلى القدوم إلى مكة هي أسباب في معظمها دينية، والقليل منها دنيوية، والمحصلة النهائية تغيير كبير ودائم للسكان، وزيادة مطردة في الاختلاط السكاني.

وقدم هؤلاء المهاجرون من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وهم يحملون ثقافاتهم المحلية، وأنماط وطرز حياتهم، وتقاليدهم وأعرافهم، وأنواع طعامهم وشرابهم ولباسهم التقليدي. وما أن يحط

هؤلاء رحالهم في مكة حتى تبدأ نواحي التغيير الاجتماعي تطرأ على حياتهم ليتواءموا مع معطيات الحياة الجديدة في العاصمة المقدسة. ومع مرور الزمن، وتوالي الأجيال ينصهر جميع هؤلاء في البوتقة المكية، بحيث تتشكل من مجموع هؤلاء الوافدين ثقافة مكية ونمط حياة مكي، قوامه الدين الإسلامي، وعماده اللغة العربية، ومظهره الطراز العربي، بحيث يتبنى هؤلاء الوافدون ثقافة البلد المضيف وحضارته.

مشكلة البحث وأهدافه ومنهجه:

عنوان البحث يلقي الضوء على المشكلة المطروحة، فمشكلة البحث تتلخص في ثلاث نقاط هي:

١ - استعراض سريع لتاريخ الهجرات الوافدة إلى العاصمة المقدسة.

٢ - كيفية استيطان الجاليات الوافدة داخل المدينة المقدسة.

٣ - اندماج هذه الجاليات في المجتمع المكي.

ويمكن القول: إن النقطة الأولى هي توطئة سريعة، تظهر التنوع الشديد في سيل الهجرة إلى العاصمة المقدسة(*). أما النقطة الثانية فتظهر كيفية انتشار هذه الجاليات في أحياء ومناطق المدينة المختلفة(**)، وهو ما يعرف بالتغطية المجالية للسكان، والنقطة الأخيرة تظهر كيفية تخلي هؤلاء الوافدين عن أنماط حياتهم، وتبني قيم المجتمع المضيف، بحيث يتخلى هذا (الموزاييك) العرقي ذي الأجناس المتعددة عن عاداته وتقاليده؛ ليتبنى العادات المكية

(*) انظر حول هذا الموضوع بحثنا بهذا الخصوص "مورفولوجية مكة الاجتماعية"، مجلة العواصم والمدن الإسلامية، ع٣ س٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ٤٣-٦٦.

(**) انظر حول هذا الموضوع:

١ - مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٢ - مكة المكرمة - دراسة في تطور النمو الحضري، منشورات الجمعية الجغرافية الكويتية، عدد (٨٧)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

بشكل خاص وعادات الجزيرة العربية والعادات العربية بشكل عام، مما يعرف بالاندماج أو الانصهار، وهو الهدف الأساسي من هذا البحث.

أما المنهج المتبع فسيكون المنهج التاريخي في بعض جوانبه، حيث سنقوم باستعراض تاريخي موجز للهجرات الوافدة، خلال الأزمنة التاريخية المتعاقبة. أما فيما يخص الاستيطان، وتكوين المناطق الاجتماعية فسنلتزم بالمنهج الاستنتاجي (Inductive Approach)، وهو افتراض نسق معين لسلوك الظاهرة، سنضعه استناداً إلى النظريات السابقة في هذا المجال، بقصد مقارنته مع واقع الظاهرة الفعلي، بهدف المواءمة بين النسق المثالي والواقعي لمعرفة مدى صلاحية النظريات المتعلقة بهذا الشأن مع الواقع الذي جرت عليه الأمور في المدينة المقدسة.

لذا جاء أسلوب الدراسة في بعضه وصفياً قائماً على تتبع حركات الهجرة من مواطنها المختلفة، والظروف التي ساعدت عليها، سواء أكان ذلك ظروف الطرد الخاصة بمكان القدوم، أو ظروف الجذب الخاصة بمنطقة الوصول، أو العوامل المتداخلة بين مكان القدوم والوصول.

أما البعض الآخر فكان تحليلياً قائماً على تطبيق بعض النظريات المرتبطة بتكوين المناطق الاجتماعية، ومدى الاستفادة منها في تفسير الوضع الأثنواغرافي في المدينة المقدسة.

وسنعالج الموضوع تحت بابين أساسين هما:

١ - الهجرات الوافدة.

٢ - انتشار الجاليات وتوطنها وانصهارها في البوتقة المكية.

أولاً: الهجرات الوافدة

١ - الهجرات القديمة:

عرفت مكة المكرمة منذ أحقاب طويلة ممعنة في القدم، قبل عهد إبراهيم عليه السلام، ولا شك أنها بصفتها جزءًا من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة تعددت فيها أجناس المهاجرين تعدداً لا نستطيع تعيينه؛ لأن المصادر التي ذكرت ذلك لا يمكن التسليم بما كتب بها تسليماً قاطعاً، لأن كتابها عاشوا متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة، ولم يكن لديهم من المصادر التي تعينهم على مثل هذه الدقة المتوخاة(١). وكل ما يمكن قوله في هذا المجال: إن قوماً عرفوا باسم العماليق سكنوا مكة، قبل قدوم الخليل إبراهيم عليه السلام، وزوجته وابنه إسماعيل عليه السلام إليها.

من المؤكد أن هجرة إسماعيل عليه السلام، يمكن عدها البداية الجليّة لتاريخ مكة. وعند وصول إسماعيل كانت قبيلة جرهم قد حلت محل العماليق في ظروف ليست واضحة لدينا؛ وبذلك سكنت جرهم وادي مكة أو على مسافة قصيرة منها(٢).

لقد حددت العناية الإلهية موضع هذا المكان المقدس، وهيأت له أسباب الحياة والدوام، فكان بئر زمزم استجابة لدعوة أب، وغوثاً للهفة أم على وليدها. وقد منحت بئر زمزم أسباب البقاء والنماء لهذا المكان المبارك، ثم كانت الخطوة الثانية وضع قواعد أول بيت للتوحيد؛ مما جعل هذا المكان مهوى أفئدة الموحدين بالله. فنما المكان، واتسعت أطرافه، وسكنته قبيلة جرهم وأحفاد إسماعيل الذي تزوج من جرهم، وأنجب نسلاً أطلق عليه المؤرخون اسم العرب المستعربة.

---

(١) أحمد السباعي: تأريخ مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي (ط٤)، ١٣٩٩هـ، جزء (١)، ص ١٦.

(٢) أحمد السباعي: مرجع سابق، ص ١٨.

ويروي لنا التاريخ أنه بعد وفاة إسماعيل بقرنين من الزمن كان يسكن مكة تحت إمرة أحد أحفاد إسماعيل الجرهميون، الذين انقسوا قسمين: جرهم وقطورا، ولقد نازعتهم السيادة في أواخر القرن الثالث، أو أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلة قحطانية قدمت من اليمن إثر سيل العرم، وهي قبيلة خزاعة التي استولت على مكة، وورثت الحكم فيها، وطردت قبيلة جرهم منها.

أما أبناء إسماعيل فلم يناوئوا القحطانيين من خزاعة، وسكن بعضهم مع خزاعة في مكة. أما بعضهم الآخر فقد هاجر إلى مناطق الحجاز الأخرى، وإلى بلاد الشام والعراق، وسمي هؤلاء بالعدنانيين.

وكان من بين هؤلاء قصي بن كلاب الذي عاش بعيداً عن مكة موطن أجداده غير أنه قرر العودة إلى مكة والسكن فيها، وآلت إليه أمور مكة وزعامتها، وذلك قرابة منتصف القرن الخامس الميلادي. وجمع قصي قومه، فأنزلهم مكة بجوار قبيلة خزاعة التي بقيت تسكن مكة تحت إمرة قصي. ومنذ ذلك الحين انتشرت بطون قريش في شعاب مكة، وكانت مساكن قريش منحصرة في بطن وادي إبراهيم، وعند سفوح الجبال التي تحيط بالكعبة. واستناداً إلى ما ذكره الأزرقي في تاريخه[٣] نجد أن بطون قريش قد توزعت في جنبات الوادي، وعلى السفوح الدنيا للجبال المجاورة في قعيقعان (جبل هندي) وأبي قبيس وأجياد الكبير (بئر بليلة) وأجياد الصغير (أجياد السد)، ففي القرب من باب بني شيبة (باب السلام) كانت بيوت السفيانيين، وفي شعب أبي يوسف (شعب علي) تقع دور بني عبدالمطلب، وفي شعب عامر كانت ديار بني بكر، وأخرى لبني عبدالمطلب، وفي أجياد كان يسكن بنو تيم وبنو مخزوم مما يلي الحرم. وفي المسفلة مما يلي الحرم كانت تنزل بطون من آل صيفي

(٣) أبو الوليد الأزرقي: أخبار مكة، دار الثقافة، بيروت، (ط٣)، ١٩٧٩م، جزء (٢)، ص ٢٣٣-٢٦٥.

وجماعة من آل عبدالدار، وفي منطقة السوق الصغيرة كانت تنزل بطون من بني أسد.

وساعد مكة على الازدهار في هذه الفترة بُعْدٌ آخر تمثل في كون المدينة مركزاً تجارياً يقع على طريق القوافل بين دول الجنوب وممالك الشمال؛ إذ كانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين إلى الشام، أو هابطين إلى اليمن، فمهروا في التجارة، وتضخمت رؤوس أموالهم، وكانوا في ثراء ويسر كبيرين. فإذا أضفنا إلى ذلك المكانة الدينية لمكة، حيث كانت الكعبة المكان المقدس لعرب الجاهلية، يحجون إليها، ويودعون فيها أصنامهم أدركنا أن مدينة مكة نمت، وازدهرت في هذه الفترة من خلال كونها بؤرة للتجارة، بالإضافة إلى كونها عاصمة روحية(٤).

٢ - الهجرة في العهد الإسلامي:

اختار الله هذه البقعة لتكون الموطن الأول للدعوة إلى الإسلام الذي حمله الرسول الكريم ﷺ، كما كانت الموطن الأول لدعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وأشرق نور الإسلام من بطاح مكة، وزلزل أركان قريش، فقاومته في أول عهده، ثم لانت قناتها للإسلام، وحمله أبناؤها إلى بقاع الجزيرة العربية الأخرى، ثم إلى البقاع المجاورة، ليشمل الرقعة الأرضية للعالم الإسلامي اليوم، وأصبحت مكة المكرمة بؤرة الإسلام.

وفي أيام الإسلام الأولى، ابتداءً من البعثة النبوية، وحتى نهاية دولة بني أمية عام (١٣٢هـ/٧٤٩م) أصبح سكان مكة من الصحابة التابعين قادة وجنوداً في جيوش الإسلام في عهد الراشدين والأمويين، وانتقل العدد الكبير منهم إلى البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق والأقطار الإسلامية الأخرى، وشهدت مكة في عهد

(٤) السباعي: مرجع سابق، ص ٤٣.

النبوة وعهد الراشدين نوعاً من الهجرة النازحة إما إلى المدينة المنورة في أوائل البعثة، وإما إلى أمصار العالم الإسلامي مع الجيوش الإسلامية، أو لتولي المناصب القيادية في الأمصار المفتوحة.

أما في العهد الأموي فقد شهدت المدينة المقدسة نوعاً من الهجرة الوافدة، فقد غصَّت مكة في هذا العهد بجمهرة كبيرة من طلاب العلم وفدوا إليها من أقطار العالم الإسلامي؛ ليتلقوا العلم عن الصحابة والتابعين، كما شهدت مكة عودة بعض أبنائها ممن غادرها للاشتراك في الجهاد وحركات الفتوح. وفي الجانب الآخر حفلت مكة بمجالس الغناء والطرب، وكثر الشعراء والمغنون والمغنيات، وأغلب هؤلاء النسوة من الموالي. وبالجملة فقد عاشت مكة في العهد الأموي على هامش الحياة السياسية، وخاصة بعد انتقال مركز الخلافة إلى دمشق الشام، وقد شغل الزهد والعبادة والعلم جل سكانها، كما شغل اللهو والفن والغناء البقية الباقية منهم(٥).

وتضخمت الثروات في العهد المذكور عن طريق الأموال التي كانت تنقلها البيوت المكية، والتي كانت تضرب في البلاد المفتوحة، بالإضافة إلى أعطيات بني أمية السخية. فزاد النشاط التجاري، وتوسع المزارعون، وتنافسوا في حفر الآبار والزراعة، وفاضت أسواق مكة بمنتوجات ضواحيها من الحبوب والخضروات، وشاع الرخاء، فعم الحاضرة والبادية(٦).

بعد الحكم الأموي ساد مكة فترة من الركود تمتد من أوائل العهد العباسي، وتنتهي بحكم المماليك، وتشمل فترة ثمانية قرون (١٣٢-٩٢٣هـ) الموافق (٧٤٩-١٥١٧م)، وقد تعاقب على حكم مكة في هذه الحقبة العباسيون والفاطميون والأيوبيون والمماليك.

(٥) السباعي: مرجع سابق، ص ١١٥-١٢٢.

(٦) السباعي: مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٥.

وكانت مكة نهباً للثورات، وعرضة لأطماع الكثيرين من الخارجين على الخلافة في بغداد الذين يجدون في احتلال مكة عنصراً مهماً في تدعيم معنوياتهم. ولهذا لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً إلا في سنوات قليلة في صدر العصر العباسي الأول، وخاصة أيام الرشيد، حيث قامت زوجته زبيدة بجر الماء إلى مكة من وادي نعمان. وقد ترتب على هذا أن عانت مكة من الضيق وغلاء الأسعار، الأمر الذي نجم عنه أن السكان قل عددهم، فقد تفرق أبناء مكة في الآفاق، واستوطنوا الأراضي المخصبة، واتخذوا أملاكاً لهم في مصر والمغرب والشام والعراق، حتى لم يبقَ في مكة من أهلها إلا القليل، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق، الذين هاجروا إلى مكة للتشرف بالجوار. لقد عرفت مكة في العصر العباسي الثاني هجرات شملت جاليات من الترك والموالي بجانب جاليات من الفرس والبربر، وبعض الأصقاع القريبة من جزيرة العرب[٧].

لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً في مكة المكرمة إلا في سنوات قليلة

لم يكن الأمر بأحسن حالاً أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك، إذ تركت الفتن أثرها في السكان، الذين قاسوا كثيراً من الجوع والقحط وقلة الماء، وعدم انتظام وصول قوافل الحجيج إلى مكة. إذ يذكر ناصر خسرو أنه هاجر في بعض سنوات العهد الفاطمي نحو (٣٥,٠٠٠) من سكان مكة، ولم يزد حجم سكانها في عام (٤٢٢هـ/١٠٣١م) عن (٢٥٠٠) نسمة، حوالي (٥٠٠) نسمة منهم من الغرباء والمجاورين[٨].

(٧) السباعي: مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٨) ناصر خسرو: سفرنامة، تعريب يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١١٢، ١٢٣.

٣ - الهجرة في العهد العثماني (٩٢٣-١٣٤٣هـ) الموافق (١٥١٧-١٩٢٤م):

في القرن العاشر الهجري آلت مقاليد المسلمين إلى آل عثمان في تركيا، الذين اتسعت فتوحاتهم، وشمل نفوذهم الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وطوال هذه الحقبة كانت الهجرة مستمرة إلى مكة، فقد بدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسوراً إلى مكة أكثر من ذي قبل، فكثر المجاورون، وتنوعت أصنافهم، فكان منهم المنقطعون للعبادة والزهد، ومنهم الراغبون في البطالة والخلود إلى ظلال التكايا، ومنهم العاملون الذين أغراهم الكسب في بلد مفتوح، ومنهم العلماء الذين طاب لهم أن يجاوروا بيت الله الحرام، وينشروا علومهم في أرجائه.

وفي هذا العصر تمت العمارة العثمانية الكبيرة للمسجد الحرام التي قام بها السلطان سليم الثاني، واستغرق بناؤها عشر سنوات (٩٨٠-٩٨٩هـ/١٥٧٢-١٥٨١م)(*)، وقد تم خلال هذه الفترة تعبيد كثير من الشوارع الرئيسة، إضافة إلى توسيع الطرق المحيطة بالحرم الشريف. وشيدت المساكن المتعددة الأدوار التي انتشرت في سفوح الجبال، واكتظت الشوارع والأزقة المحيطة بالمسجد الحرام بالسكان، وخاصة في العهد العثماني الثاني (١٢٥٦-١٣٤٣هـ/ ١٨٤٠-١٩٢٤م)، حيث زادت الهجرة إلى مكة من مختلف مناطق العالم الإسلامي، ونجد على سبيل المثال الرحالة السويسري بركهارت الذي زار مكة في عام (١٨١٤-١٨١٥م)، يقول: "إن كل سكان مكة غرباء أو نسل غرباء خلا قلة من بدو الحجاز أو سلالتهم المستقرين هنا ... ففي موسم كل حج يتخلف بعض الحجاج. والمسلم إذا ما استقر في أي مكان لأي فترة زمنية اتخذ زوجة، وغالباً ما يدفعه ذلك إلى الاستقرار الدائم، وعلى هذا فمعظم أهل مكة منحدرون من أصلاب غرباء، أتوا من مناطق بعيدة من مختلف أنحاء المعمورة. وأكثر هؤلاء

(*) ذكر بعض المؤرخين استنادًا إلى النقش المدون على هذه العمارة أنها بدأت عام ٩٧٩هـ، وانتهت في عام ٩٨٤هـ.

الغرباء هم الذين قدم آباؤهم من اليمن وحضرموت، يليهم الهنود فالمصريون فالسوريون فالمغاربة فالأتراك. وهناك أيضاً مكيون من أصول فارسية وتترية وبخارية وكردية وأفغانية، وباختصار فإن في مكة عناصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامي"(٩).

إن للمكيين تصنيفًا خاصًا بالجاليات الوافدة إلى مدينتهم. وهذا التصنيف أقرب إلى الواقعية من تقسيم السكان بحسب الأقطار السياسية، فالهجرات التي وفدت إلى مكة كانت في عهود سابقة لم تكن معها الحدود والأسماء الحالية لهذه الأقطار معروفة. ولقد أطلق المكيون على هؤلاء الوافدين تعبيرات أقرب إلى النواحي الأثنوغرافية منها إلى الأقطار السياسية المستعملة حالياً. وجرياً على عادة المكيين سنستعمل المصطلحات التي يتداولها أهل مكة بهذا الخصوص. وسنلقي بعض الضوء على الجاليات التي استوطنت مكة، والأسباب التي دفعت هؤلاء إلى الهجرة إلى الديار المقدسة.

الهنود: وتطلق في مكة على القادمين من الهند والباكستان وبنغلادش وسريلانكا وبورما والنيبال، وهجرة هؤلاء حديثة نسبياً وتتزامن مع هجرة الجاوه كما يروي ذلك مؤرخ مكة الحديث أحمد السباعي، إذ قلما تجد في عهود مكة السابقة للعهد العثماني الثاني بينها مجاوراً من الهند أو من جاوه، لبعد المسافة بينهم وبين هذه البلاد، خصوصاً قبل استعمال السفن البخارية. ويذكر السباعي أن دافع الهجرة عند هؤلاء كان نشاطهم التجاري. غير أنه من المؤكد أن الحروب التي شنها الإنجليز على أمراء المسلمين في الهند، بالإضافة إلى تقسيم شبه القارة الهندية، وإجبار المسلمين على ترك أماكن سكناهم في الهند، واللحاق بالأراضي الباكستانية زاد في هجرة هؤلاء إلى المدينة المقدسة. وقد زادت هجرة هؤلاء حتى إنهم طغوا على الجاليات الأخرى.

(٩) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبدالعزيز الهلابي، وعبدالرحمن عبدالله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص ١٦٨.

ومن البيوت الهندية التي ما تزال موجودة في مكة عائلات الطيب وملائكة وشمس وقطب وجلال وخوج وعبدالخالق وحبيب وجستنية وخوقير والدهلوي والبوقرية وميره[١٠] وفدا ومرزا وحكيم والمفتي، وعبدالشكور، وجان والزرعة وغيرهم.

الجاوى: إن الحدود الجغرافية للجاويين في العرف المكي تشمل كلا من تايلند وماليزيا والجزر الإندونيسية كافة، وتنسب التسمية إلى جزيرة جاوه أكثف مناطق إندونيسيا سكاناً، ويلحق بهذا الاسم مجموعة من الإندونيسيين الذين هجرهم الهولنديون إلى رأس الرجاء الصالح، ويسميهم أهل مكة أهل الكهف، وهي تحريف لأهل الـ (Cape).

كانت منابع الهجرة من شبه جزيرة الملايو وجاوه وسومطرة وبورينو، وكان الوافدون يتسمون بأسماء المقاطعات التي قدموا منها. وليس أهل مكة المحدثين بأقل من العرب الأقدمين في تعريب الأسماء الجغرافية الأجنبية، ويظهر هذا بوضوح في الأسماء الجاوية عموماً، إذ أصبح اسم آكي: أشى، وبادانج: فادن، ولامبونج لمغون وبالمبانج: فيلمبان: وبارتافورا: باتوبارا، والبوجيون: بوقس[١١].

إن الأسماء الجاوية صعبة النطق على الشفاه العربية، لذلك كان هؤلاء يغيرون أسماءهم بمجرد وصولهم إلى مكة. وقد كان هذا العمل يتم بطريقة قانونية، إذ يمنح هؤلاء وثيقة من مفتي الشافعية في مكة بالاسم الجديد الذي سوف يعرف به. ومن لا يغير اسمه كلية يجري عليه بعض التعديلات تتلاءم والنطق العربي على نحو ما أسلفنا[١٢].

(١٠) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

(11) Hurgronje, C. S. "Makka in the Later Part of the 19th Century", Leiden, Brill, 1970, P. 230-232.

(12) Opct, P. 220.

إن الهجرة من جنوب شرق آسيا ليست قديمة جداً، وإنما هي حديثة ترجع في الغالب إلى النصف الثاني من العهد العثماني، وخاصة بعد استعمال السفن البخارية في المواصلات؛ الأمر الذي سهل القدوم إلى مكة.

وقد كانت دوافع الهجرة عند هؤلاء في أول عهدهم هي طلب العلم(١٣). وكان لهم صيت كبير في التقوى، وكانت مكة الحلم الذي يراود الشباب من جنوب شرق آسيا بقصد طلب العلم. وقد برز من هؤلاء كثير من أجلّة العلماء بعضهم استقر في مكة، وبعضهم الآخر عاد ليذكي الحركة الدينية، ويشجع الثورة على المستعمر الهولندي. ولهذا كان الهولنديون يرون حتى في الذهاب إلى الحج خطراً كبيراً على مركزهم في البلاد.

ومن البيوت الجاوية في مكة نذكر عائلات البتاوي والسمباوا وزيني والمنكابو والقستي والبوقس والفلمبان وقدس والفطاني(١٤).

البخارية: إن مفهوم البخاريين في اصطلاح أهل مكة يندرج على المسلمين القادمين من أقطار الاتحاد السوفيتي السابق والصين الشيوعية. ويشمل مناطق انتشار المسلمين في القسم الآسيوي والأوروبي من الاتحاد السوفيتي، وكذلك مقاطعة سينكيانج وما جاورها في الصين الشعبية. مما كان يعرف في العهود الإسلامية ببلاد ما وراء النهر، ثم عرف باسم التركستان، وهي تسمية شملت مسلمي آسيا الوسطى؛ لأن معظمهم من أصل تركي، وبعضهم من أصل فارسي. ويوجد تنوع واضح في الأجناس التي ينتمي إليها هؤلاء المسلمون، فمنهم التركمان، والكازاخ (القازاق) والأوزبيك والقيرغيز. يضاف إلى ذلك المسلمون، القادمون من القوقاز، ويتبعهم الداغستانيون والشراكسة والشيشان وكذلك مسلمو القرم.

(١٣) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

(١٤) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

وقد نجم عن الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية قيام سلسلة من الحروب بين الدولتين، كان منها حرب القرم عام ١٧٨٣م (١١٩٧هـ)، حيث احتل الروس شبه جزيرة القرم، ثم رأت روسيا استئصال الوجود التركي الذي يحيط بها، فزحفت على قيرغيزيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ثم دارت الدائرة على تركستان، واحتلتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولما قامت الثورة البلشفية ثارت معظم المناطق الإسلامية. فقد ثار البشكير والقيرغيز، فقضي على ثورتهم بالقسوة عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ)، وشرد الملايين من المسلمين القازاق (الكازاخ) والقيرغيز الذين ماتوا جوعاً عام ١٩٢١م (١٣٣٩هـ)، وأعقبوها بثورة أخرى عام ١٩٢٦م (١٣٤٤هـ) حينما صادرت الحكومة ماشيتهم وأراضيهم. واستمرت المقاومة حتى عام ١٩٣٧م (١٣٥٦هـ) حين أعدم الروس أمير التتار علي أوغلي الذي نادى بفكرة جمع الأراضي الإسلامية في دولة واحدة تتحد مع الاتحاد السوفيتي على قدم المساواة. وكان إعدام علي أوغلي يمثل نهاية الثورات الإسلامية ضد الروس(١٥).

أما المسلمون في تركستان الشرقية فقد عاشوا فترة صراع دموي مع الصين، إذ احتلتها القوات المنشورية من عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) وحتى عام ١٩١١م (١٣٢٩هـ)، حيث انتزعت البلاد استقلالها لفترة وجيزة، أعقبها احتلال روسي قبيل الحرب الثانية، حيث عاد الصينيون لاحتلالها مرة أخرى لتدخل تحت حوزة الصين الشيوعية كمقاطعة صينية باسم (سينيكيانج)(١٦).

إن أوضاع الصراع بين هذه الشعوب المسلمة من جهة، وبين الروس والصينيين من جهة أخرى، وما أعقب ذلك من حروب دموية،

(١٥) السقا، محمد صفوت: أضواء على المسلمين في الاتحاد السوفيتي، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ، ص ٥٦-٧٦.

(١٦) ألب تكين، عيسى يوسف: قضية تركستان الشرقية، ترجمة إسماعيل حقي، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ١٣٩٨هـ، ص ٧١-١٦٨.

بالإضافة إلى تجريد هؤلاء من ممتلكاتهم ومواشيهم طبقاً لقوانين تحديد الملكية، ثم سن القوانين التي تبيح زواج المسلمات من الروس والصينيين، وما تبع ذلك من إغراق هذه المناطق بالمهاجرين الجدد، لتقليل نسبة المسلمين في أراضيهم، وفرض الهجرة على الكثير منهم إلى مناطق روسيا والصين، كل ذلك أدى إلى هجرة العديد من هؤلاء من أراضيهم وممتلكاتهم.

وقد استقبلت الدولة العثمانية الملايين من هؤلاء الذين استوطن بعضهم تركيا أو بلاد الشام والعراق ومصر، حيث نجد جاليات من البخاريين والشيشان والشركس والداغستانيين في كل المدن الكبرى من أقطار العالم العربي حالياً. ولم تبخل مكة أن تحتضن العديد من هؤلاء الإخوة الذين أضافتهم إلى رصيدها من الأجناس الأخرى.

ومن البيوت البخارية في مكة اليوم نجد الداغستاني، البشكيري، الانديجاني، القرمي (كرامي) والوشكلي.

الأتراك: من المرجح أن مكة بدأت تستقبل بعض العناصر التركية منذ العصر العباسي الثاني، فقد عرفت مكة في هذا العصر جاليات من الترك الموالي. وربما كان هناك استيطان لبعض المماليك الأتراك أيام حكمهم في مصر والشام وبلاد الحجاز في نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وما أن أطل عام ٩٢٣هـ حتى بدأت مكة بالدعاء لأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين السلطان سليم الأول العثماني، وبدأت الجسور تمتد بين دولة آل عثمان ومكة المكرمة؛ فقد عني العثمانيون بشؤون الحرمين، ورتبوا لها جراية سنوية من القمح، بالإضافة إلى الهدايا السنوية لأعيان مكة والصدقات لفقرائها[١٧].

وتولى العثمانيون مناصب القضاء والحسبة في مكة أولاً، ثم في فترة لاحقة وحوالي القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر

(١٧) السباعي: مرجع سابق، ص ٣٤٤-٣٤٥.

الميلادي) أخذت ترابط قوة عثمانية في المدينة المقدسة، وكانت المرابطة في السابق في جدة، غير أنه بمرور الزمن توطدت أركان العثمانيين، وازداد عدد الموظفين الذين يتولون مناصب المال، ثم شؤون البريد، ونظارة السوق، وأعمال الأوقاف وغيرها[١٨]، وقد اطرد عدد سكان المدينة نتيجة لمجاورة موظفي الأتراك وجندهم مع عائلاتهم خلال هذه الفترة.

غير أن إعلان الشريف حسين العصيان على الدولة العثمانية عام ١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٦م غيّر موازين القوى بالنسبة للجالية التركية المقيمة في مكة، فبعد حصار لجميع الثكنات العسكرية لمدة تقرب من أسبوعين استسلمت القوات العثمانية في مكة، الأمر الذي دعا إلى ترحيل هؤلاء؛ فترك مكة في هذه الفترة وما بعدها الكثير من المجاورين الأتراك الذين قل عددهم بشكل ملحوظ في الأصول السكانية للمدينة المقدسة، ويبدو أن هذه الأحداث وما تلاها كانت من أسباب تركهم لمكة، ونجد اليوم بعض العائلات التركية الأصل، مثل: الكوشك والقرملي وغيرهما[١٩].

المصريون: ويطلق عليهم أهل مكة اسم "المصارية"، ويمكن أن نتتبع خيوط الهجرة المصرية إلى مكة من خلال العلاقات المصرية الحجازية عبر التاريخ الحديث، إذ زاد اتصال المصريين بالجزيرة العربية أيام محمد علي باشا جد العائلة المالكة السابقة في مصر، حيث أمره العثمانيون بمحاربة السعوديين، الذين سيطروا على الحجاز، فيما بين سنتي ١٢١٧-١٢٢٨هـ؛ فأرسل جيشاً بقيادة ابنه أحمد طوسون باشا، يضم فرقاً من الأتراك والمصريين والشاميين وبعض المغاربة، غير أن الفشل كان مصيره، فأتبعه بجيش آخر استطاع به دخول المدينة وجدة ومكة، وقد قدم محمد علي باشا

(١٨) السباعي: مرجع سابق، ص ٤٥١-٤٥٣.

(١٩) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٠٨-٥٢٢.

بنفسه إلى مكة، وأجرى ترتيبات إدارية فيها، وقد احتفظ محمد علي باشا بحقوقه في السيطرة على مكة سيطرة تامة، لا يشاركه فيها نفوذ العثمانيين بموجب معاهدة بين الطرفين، غير أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، ففي عام ١٢٥٦هـ جرى الاتفاق بين محمد علي باشا والعثمانيين على ترك الحجاز، ليعود إلى الحكم العثماني ثانية[٢٠].

لقد ظلت مكة خلال هذه الفترة محكومة حكماً ثنائياً، قوامه هيمنة مصرية تحت التبعية العثمانية، لمدة تزيد على عشرين عاماً، ثم انفردت مصر بالإشراف المباشر لمدة سبع سنوات، حيث عادت مكة ثانية إلى العثمانيين الذين طلبوا ترحيل الجيوش المصرية من الحجاز، فكان لهم ذلك.

وعلى الرغم من أن المصريين كانوا وما يزالون من أقل الناس رغبة في الهجرة، لكن فتوحات محمد علي باشا في مكة شجعتهم على الانتقال إلى مكة، والاستيطان فيها، ولا يبعد أن يكون أكثر المجاورين من أصحاب العلاقة بجيش محمد علي باشا، وقد اختاروا الإقامة بعد صدور الأوامر العثمانية بترحيل هذا الجيش، فلا عجب أن وجدنا العائلات المنحدرة من أصل مصري لا تنتمي إلا إلى جد واحد بعد جلاء المصريين عن مكة إلا نادراً، ومن أشهر العائلات المصرية بيت القطان، والزقزوق، والرشيدي، والمنصوري، والدمنهوري[٢١].

المغاربة: إن الأقطار التي تنضوي تحت لوائها هذه الكلمة تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ويمكن أن تلحق بها أيضاً موريتانيا، على الرغم من أن أهل موريتانيا يطلقون على أنفسهم اسم (شناقطة) نسبة إلى شنقيط، الاسم القديم لموريتانيا، والذي تعرف به بعض قبائل المنطقة.

(٢٠) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٦٩.

(٢١) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٦٩.

وقد استقر المغاربة في مكة؛ لأن بعض الحاميات العثمانية التي كانت ترسل إلى الحجاز كانت من المغاربة، يضاف إلى ذلك الحروب والفتن التي خلفها الاستعمار الفرنسي والإيطالي، وما نجم عن ذلك من حركات التمرد، ومقاومة الغزو الأجنبي ساعدت على نزوح هؤلاء. فإذا ما أضفنا إلى كل ذلك ما يتخلف من حجاج هذه المنطقة في مكة أدركنا إسهام هؤلاء في المورفولوجية الاجتماعية للمدينة المقدسة. وتطالعنا من الأسماء التي تنحدر من أصول مغربية أسر المغربي والتونسي والمالكي وبيت حميدان.

الشوام: وتعني القادمين من أقطار سوريا الكبرى أو بلاد الشام، التي تشمل سوريا وفلسطين والأردن، ولبنان، وكانت هجرة هؤلاء لأسباب تجارية، وخاصة القادمين من المدن السورية كدمشق وحلب وغيرهما. وقد ساعد وجود الخط الحديدي الحجازي الذي كان يربط دمشق بالمدينة المنورة على زيادة الاتصال بين أقطار بلاد الشام وبلاد الحجاز، كما كان بعض موظفي الإدارة العثمانية من هذه الديار. فإذا أضفنا إلى كل ذلك قافلة الحج الشامي السنوية تصورنا أن بلاد الشام ستشترك أيضاً بسهم في سكان المدينة المقدسة. ولا ننسى أيضاً أن حرب فلسطين عام ١٩٤٨م (١٣٦٧هـ) قد دفعت بعض أبناء فلسطين وخاصة من قطاع غزة إلى مكة المكرمة، ونجد من العائلات ذات الأصل الشامي بيت هاشم والجبري والخشيفاتي وغيرهم.

السليمانيون: يطلق هذا التعبير في الاصطلاح المكي على العناصر المكية التي قدمت أصولها من أفغانستان. وليس بين أيدينا معلومات كثيرة تصور كيفية هجرة الأصول الأولى لهذه الجالية، غير أن ما يتردد على الألسن، أن أحد أمراء أفغانستان، واسمه محمد نادر شاه قد حج مع مجموعة كبيرة من جيشه قبل قرابة (٢٠٠) عام، فبقي بعض أفراد جيشه، واستوطنوا مكة، ثم زاد عددهم تدريجياً بمن يتخلف عن العودة بعد مواسم الحج.

الحضارم: من الجاليات التي اتسعت هجرتها إلى مكة جاليات الحضرميين. ويذكر السباعي أن هجراتهم الأولى ومجاورتهم بمكة كان رائدها النشاط العلمي، ثم أضيف إليها فيما بعد النشاط التجاري، فازداد طلاب الرزق من كبار التجار إلى صغار الباعة والمستخدمين. ثم اتسعت هجرة هؤلاء، وأصبح المجاورون منهم يكادون يستقلون بأكثر الحوانيت التجارية، يشاركهم في هذه المهنة بعض الهنود وأهل الشام، وقد انتفع الأهالي بخدمة الصغار منهم في البيوت. ومن أشهر عائلات الحضارم بيت باجنيد وباحارث وباناجه وباناعمه وباحكيم وبازرعة وباعيسى وباعشن وغيرهم(٢٢).

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء بعض الجاليات اليمنية التي لا تنتمي إلى حضرموت، وقد كان لسوء الأحوال الاقتصادية في اليمن أثر كبير في هجرة هؤلاء، لا إلى مدينة مكة بل إلى جميع مناطق المملكة بلا استثناء، ونجد اليوم في مكة العديد من العائلات اليمنية التي تسهم بنصيب وافر في الأصول السكانية للمدينة المقدسة.

الأفارقة: ويطلق عليهم في المصطلح المكي اسم (التكارنة)، وهذا يشمل جميع العناصر السوداء التي تستوطن المناطق الواقعة بين الصحراء الكبرى والغابة الاستوائية، وتمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

وقد أطلق الجغرافيون العرب اسم بلاد السودان على نطاق السافانا المدارية في القارة الأفريقية بأسرها الذي يشمل دول السنغال، وموريتانيا، ومالي، وفولتا العليا، والنيجر، ونيجريا، وتشاد والسودان. ويشمل السودان الغربي المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي وبحيرة تشاد، أما السودان الشرقي فيشمل المنطقة الممتدة بين بحيرة تشاد والبحر الأحمر شاملاً السودان والحبشة والصومال.

---

(٢٢) السباعي: مرجع سابق، ص ٥٧٠.

وقد وصل الإسلام إلى السودان الغربي خلال القرن التاسع الميلادي، قادماً من المغرب، ولم يأت القرن الحادي عشر الميلادي حتى عم الإسلام جميع المنطقة. أما السودان الشرقي فقد انتشر الإسلام بين أبنائه في وقت مبكر، وتعود صلات سكان هذه المناطق بمكة إلى:

١ - الظروف القديمة التي لابست تجارة الرقيق قديماً.

٢ - الحروب التي وقعت بين سكان هذه المنطقة والمستعمرين الإنجليز والفرنسيين، الأمر الذي نجمت عنه هجرة العديد من هؤلاء.

٣ - رحلات الحج التي يقضي معظم السكان حياتهم في الادخار لها منذ وقت مبكر. وكانت رحلة الحج تستغرق سنوات عدة، يقطعها هؤلاء على الأقدام إلى السودان، ثم يقطعون البحر الأحمر إلى مكة. ومنذ الثمانينيات الهجرية زادت هجرة هؤلاء واستقرارهم خاصة بعد انتظام الرحلات الجوية من بلادهم إلى الديار المقدسة.

ونجد من الجاليات التكرونية التي تستوطن مكة حالياً أسماء مجموعات قبلية، مثل: الهوسا، والفلان، الذين يعرفون بالفلاته، والبرنو والبرقو والكمبيجي وغيرهم[٢٣].

جاليات أخرى: إن هجرة العراقيين إلى مكة قليلة، وربما يعود ذلك إلى خصب الأراضي العراقية، ويمكن أن يلحق بهم هجرة الإيرانيين أيضاً التي تبدو قليلة أيضاً، غير أن مكة لا تخلو من مواطنين تعود أصولهم إلى العراق أو بلاد إيران.

هناك أعداد كبيرة ممن نسوا أو تناسوا الأصول التي انحدرت منها عائلاتهم، وقد صنف هؤلاء بعدِّهم جاليات غير معروفة الأصول الأولى.

---

(٢٣) محمد محمود السرياني: رحلة الحج البرية من غرب أفريقيا إلى مكة المكرمة، مجلة الدارة، العدد (١-٢)، س (٢٦)، ص ١٩٧-٢٢٦ .

أسباب الهجرة الوافدة:

من استعراضنا لتاريخ استيطان الجاليات المختلفة نستطيع أن نحدد الأسباب العامة التي دعت إلى الهجرة إلى البلد الحرام. ويمكن أن نصنف هذه الأسباب جرياً على عادة الجغرافيين إلى:

- أسباب تتعلق بمكان القدوم.
- أسباب تتعلق بمكان الوصول.
- أسباب مساعدة.

الأسباب التي تتعلق بمكان القدوم:

كان العهد العثماني الثاني هو العهد الذي كثرت فيه الهجرة إلى المدينة المقدسة، ولو نظرنا إلى أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة لرأينا أن كل أقطار العالم الإسلامي كانت ترزح تحت نير الاستعمار، فنجد الهولنديين في إندونيسيا، والإنجليز في ماليزيا ودول القارة الهندية ومصر والسودان ونيجيريا، والروس في جمهوريات آسيا الوسطى وبلاد القوقاز. والمغرب العربي ودول غرب أفريقيا تحت السيطرة الفرنسية. وكان من نتيجة ذلك أن هبت هذه الشعوب لمقاومة المستعمر، فكانت الثورات التي قضى عليها المستعمرون بكل قسوة ووحشية، وكان من جراء ذلك تضييق الخناق على السكان، ومصادرة ممتلكاتهم، والزج بهم في السجون، وقد يصل الأمر إلى مستوى طردهم من بلادهم.

إن هذا كان من الدوافع القوية الطاردة لهؤلاء من بلادهم، والمشجعة لهم على الهجرة من بلادهم. ولذا يمكننا تصور أن الهجرات التي تمت إلى مكة من الخارج كانت هجرات قسرية فرضت على الكثيرين، وأمليت عليهم إملاءً، فليس لهم الخيار في ذلك.

الأسباب التي تتعلق بمكان الوصول:

أما الأسباب الجاذبة التي تتعلق بمكان الوصول فنلمسها في الأجواء الروحية التي تضفيها المدينة المقدسة على ساكنيها. بالإضافة إلى ما لهذه المدينة من قدسية واحترام في نفوس المسلمين جميعاً جعلت الأفئدة تهفو إليها دائماً، يضاف إلى ذلك الأجواء العلمية، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الشرعية والعربية، التي كانت متوافرة طوال عهود التاريخ في أروقة الحرم وجنباته. هذا في الجانب الديني، أما في الجانب الدنيوي فقد كانت مكة بلداً مفتوحاً للنشاط التجاري، والكسب المادي، وخاصة في مواسم الحج.

لذا يمكن إفراد النقاط الآتية عوامل خاصة بمناطق الوصول:

١ - الانقطاع للعبادة والزهد والعيش بجوار بيت الله العتيق.

٢ - طلب العلم، والتفقه في العلوم الشرعية والعربية، والاستفادة من حلقات العلم التي تعقد في الحرم المكي الشريف.

٣ - التجارة والكسب في بلد أسواقه التجارية مفتوحة للجميع.

كان الدافعان الأول والثاني رائدي الهجرة إلى المدينة المقدسة طوال عهود التاريخ، ويمكن أن نضيف إليهما الهدف الثالث عند بعض الجاليات كالحضارم والهنود الذين كانوا يشعرون بأن الأوضاع الاقتصادية في مكة؛ وعلى الرغم من كونها متواضعة إلا أنها أحسن حالاً من الوطن الأم. وفيما عدا ذلك لم يكن في مكة من أسباب الرخاء، وسعة العيش، والثروة الكبيرة، التي يمكن تحقيقها بسهولة، الأمر الذي يغري الناس بالقدوم، فقد قدم الكثير من هؤلاء بدينهم، والقليل بدنياهم.

لذا لا يمكننا أن نرى أن للعوامل الاقتصادية في مكة أثراً في جذب الفئات الأولى من المهاجرين، غير أن الظروف الاقتصادية الممتازة التي عاشتها مكة فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة

بعد تدفق النفط في البلاد، جعلت العامل الاقتصادي هو المؤثر الأول في الهجرة بعد أن كان المؤثر الأخير، فأصبح الكثير من المهاجرين يأتون للأغراض الدنيوية، والقليل النادر للأغراض الدينية، وقد ضاعف هذا العامل من حجم الهجرة على المستويين الداخلي والخارجي. ولولا القيود المفروضة على الهجرة الخارجية، لزاد عدد سكان مكة إلى أضعاف ما هي عليه الآن.

الأسباب المساعدة:

أما الأسباب المساعدة على الهجرة من مختلف أرجاء العالم الإسلامي إلى مكة، فلم تكن ميسورة فيما مضى؛ نظراً لبعد الشقة من جهة، وعدم وجود وسائل المواصلات من جهة أخرى. غير أن وجود السفن البخارية ساعد على انتقال الناس من الأماكن القصية في العالم الإسلامي كإندونيسيا وماليزيا، ودول القارة الهندية، فزادت هجرة هؤلاء أكثر من ذي قبل. كما أن مد سكة حديد الحجاز ساعد أيضاً على الوصول بسهولة إلى الأماكن المقدسة من مختلف جهات آسيا الوسطى وتركيا وإيران والبلاد العربية في آسيا، فإذا ما أضفنا إلى ذلك وجود المواصلات الجوية في الفترة الحالية أدركنا مدى إسهام هذه الوسائل في تشجيع الهجرة وتكثيفها.

ومما يجب التركيز عليه ما يعرف بظاهرة الاتصال بين مكان القدوم ومكان الوصول، حيث لم تنقطع صلات المجاورين بمكة والأماكن التي قدموا منها. وهذا بدوره يساعد على الهجرة، ويزيد من تسارعها. فوجود قريب أو معرفة صديق في مكة له دور كبير في تشجيع الهجرة، لذا نجد في كثير من الحالات أن المهاجرين هم من منطقة واحدة في هذا القطر أو ذاك، والسبب في ذلك هو وجود أفراد من هذه المنطقة في بلد المهجر يساعد هؤلاء عند قدومهم، خاصة وأن الكثير منهم لا يعرفون لغة البلاد، ومتطلبات شروط

الحياة الجديدة؛ فيقومون بتأمين السكن، والعمل، وترتيب أمر الزواج، والاتصال بأبناء الجالية، وغير ذلك. ولقد أدى هذا العامل في السنين الأربعين الأخيرة دوراً بارزاً في زيادة الهجرة إلى المدينة المقدسة من الخارج، وكذلك أيضاً من مختلف أرجاء الجزيرة من الداخل.

٤ - الهجرة في العهد السعودي:

استمرت الخطوط العريضة لتيارات الهجرة التي كانت سائدة في أواخر العهد العثماني خلال الفترة الأولى من تاريخ مكة الحديث، حيث أصبحت الحجاز تتبع المملكة العربية السعودية. وخلال هذه الفترة استمر تيار الهجرة الخارجية من خلال المسلمين القادمين إلى العمرة أو الحج من مختلف مناطق العالم الإسلامي(٢٤).

وبالمقابل أسهمت مناطق المملكة المختلفة بنصيب وافر من حركة الهجرة إلى العاصمة المقدسة، حيث نجد تمثيلاً لمختلف مناطق المملكة الإدارية. ويبدو هذا التمثيل أكثر وضوحاً في قبائل الحجاز المختلفة التي استوطنت مكة أكثر من غيرها بحكم إحاطتها وجوارها للمدينة المقدسة.

أسهمت مناطق المملكة المختلفة بنصيب وافر من حركة الهجرة إلى العاصمة المقدسة

لم تكن العناصر القبلية سابقاً ترغب في الاستيطان في مكة على الرغم من قربهم منها. فهؤلاء في الغالب لا يفضلون سكن المدن على الرغم من أن صلاتهم كانت وطيدة مع المدينة المقدسة، حيث كانوا يعيشون في أطرافها البعيدة، ويؤجرون جمالهم في مواسم الحج، وينقلون حاصلاتهم إلى أسواق مكة.

ويروي البلادي أنه كان يتحضر بعض أفراد هذه القبائل بين الحين والآخر، ونظراً لظروف بيئتهم القاسية قد ينسى أو يتناسى المتحضر أصله القبلي، فينسب إلى مهنته، فيظن أنه من الوافدين.

(٢٤) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة – دراسة في تطور النمو الحضري، ص ٢٧.

غيـر أن سيادة الأمن على ربوع البـلاد قد أنهى عـمليات الغزو، كما أن قلة الأمطار سـاعـدت على جفاف المراعي، فـاختفت أعداد الثـروة الحـيـوانيـة. يضـاف إلى ذلك وجـود الأمـوال التي تدفـقت على المدن السعودية كافة ومنها مكة، قد أغرى هؤلاء باللجوء إلى المدن، فكان من آثار ذلك أن استوطنت مكة أعداد كبيرة من هؤلاء الذين يمثلون مناطق المملكة كافة بلا استثناء. وعلى الرغم من أن استيطان بعض هذه القبائل قديم، إلا أن غالبية هؤلاء القبليين قد هاجروا حديثاً، وخاصة من مناطق الحجاز المجاورة[٢٥].

وفي سبعينيات القرن العشرين (١٣٩١هـ/١٩٧١م) أظهرت نتائج المسح الاجتماعي - الذي أعد لمخطط المنطقة الغربية من المملكة - أن (٥٩٪) من مجموع أرباب الأسر المكية مولودون خارج مدينة مكة المكرمة، منهم قرابة (١٨٪) من مواليد المملكة، والبقية وهم (٤١٪) ولدوا خارج المملكة العربية السعودية في أقطار عربية وإسلامية أخرى[٢٦]. ويدل ذلك على أمرين أساسيين هما:

١ - تعاظم تيار الهجرة الخارجية الوافدة إلى المدينة المقدسة.

٢ - ارتفاع ملموس في حركة الهجرة الداخلية من مختلف مناطق المملكة.

أصبح الدافع الاقتصادي هو المحرك للهجرة إلى المدينة المقدسة، سواء أكانت الهجرة داخلية أم خارجية، ولم يعد الدافع الديني هو الذي يطبع حركة الهجرة إلى المدينة، كما أن الهجرة الخارجية لم تعد استيطانية كما كانت في السابق، فقد قيّدت الحكومة حركة الهجرة الخارجية ونظمتها، وقصرتها على الهجرة المؤقتة التي تضم سيلاً من

(٢٥) مخطط المنطقة الغربية: الإستراتيجيات البديلة للمدن، ص ٤١، وزارة الداخلية، إدارة تخطيط المدن والمناطق، ١٣٩٣هـ.

(٢٦) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٣-٢٤.

العمالة الوافدة التي تحتاجها المدينة لمواكبة تطورها الاقتصادي. وبالرغم من حركة الهجرة غير النظامية فقد ظهر أثر السياسات الحكومية واضحاً في بيانات عام (١٤٠٣هـ)؛ إذ انخفض عدد أرباب الأسر المولودين خارج البلاد إلى أكثر من النصف. فهبطت النسبة إلى (١٩٪) بدلاً من (٤١٪) مقابل ذلك زيادة عدد المولودين داخل مكة الذين ارتفع عددهم إلى ما يقرب من (٧٣٪) عام (١٤٠٣هـ)، بالمقارنة مع (٤١٪) عام (١٣٩٤هـ)[٢٧].

وأوضح مخطط التنمية الشامل لمنطقة مكة المكرمة (تقرير (٢) ج (٢) جدول ٣: ١) أن إجمالي الهجرة الوافدة (خارجية وداخلية) خلال الفترة (١٣٩٩-١٤٠٣هـ) قد بلغ ما يقرب من (١٢٧) ألفاً، منهم (٨٤) ألفاً من داخل المملكة (هجرة داخلية) و(٤٣) ألفاً من خارج المملكة (هجرة خارجية)[٢٨]. وهذا يعني أن حجم الهجرة الداخلية يبلغ قرابة (٦٦٪) معظمهم من الظهير الريفي للمدينة المقدسة. أما الهجرة الخارجية فتشكل (٣٤٪) من إجمالي تيار الهجرة العام، وتأتي الدول العربية وعلى رأسها مصر في مقدمة الدول المرسلة للمهاجرين، يليها أقطار باكستان وبنغلادش، وأقطار اليمن وبلاد الشام، ومعظم القادمين من أفريقيا السوداء يأتون من دولة نيجيريا الاتحادية[٢٩].

ومنذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري جفت منابع الهجرة الخارجية تماماً ما عدا الهجرة الخفية وغير النظامية، وأصبحت الهجرة هي عمالة وافدة لأغراض تقتضيها سوق العمل في مكة، ولم يعد لهؤلاء الوافدين أثر يذكر في المورفولوجية الاجتماعية للمدينة؛

(٢٧) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٣-٢٤.

(٢٨) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة - دراسة في التغير السكاني، ص ٢٧-٢٨.

(٢٩) محمد محمود السرياني: الهجرة الوافدة إلى المملكة العربية السعودية، مجلة كلية التربية، عدد خاص عن الجغرافيا، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، ص ١٤٥-٢١٣.

لأن مـدة بقـائهم مـحـدودة، ومـرهـونـة بانتـهـاء الحـاجـة إليـهم. وهـذا يجـعل الهـجـرة مـقـصـورة على العـناصـر الـداخليـة من أبناء المملكة المختلفة.

والخـلاصـة أن الهـجـرة الوافـدة الخـارجيـة الاسـتيطانيـة أصبـحت قليلة جدًا، وحتى العمالة الوافدة الخارجية، قد تقلصت إلى حدودها الدنيا في ظل سياسة السعودة التي تتبناها السلطات المحلية، لإفساح المجال للأيدي العاملة الوطنية، لتمارس دورها الطبيعي في مسيرة العمل التنموي.

ثانياً: انتشار الجاليات ومناطق توطنها وانصهارها في البوتقة المكية

تمر الجـاليـات الوافدة المهاجرة من الخـارج بثلاث مـراحل متبـاينة قبل اندماجها في المجتمع المضيف، وهذه المراحل هي:

- دخول الجاليات واستيطانها.
- تكوين المناطق الاجتماعية المختلفة داخل المدينة.
- مرحلة الاندماج الكلي في المجتمع المضيف.

١ - دخول الجاليات واستيطانها:

ليس بين أيدينا ما يعين على رسم الصورة الحقيقية لعملية انتشار الغطاء السكاني على الرقعة الأرضية للمدينة المقدسة من قبل الجـاليات المختلفة. ويمكن أن نستعير ما كتب في هذا الصدد عن انتشار الجاليات في مناطق أخرى من العالم. وقد حظيت في هذا المجال نظرية الاجتياح والتـعـاقب (Invasion - Succession Theory) باهتـمـامـات الجـغـرافـيين وعلماء الاجتماع في تفسير توطن الجاليات في قطاعات المدن المختلفة. ومدلول كلمة الاجتياح (Invasion) يشير إلى الاستيطان الأول لبعض أفـراد جـاليـة في أي رقـعـة أرضيـة من المدينة، أمـا كلمـة التـعـاقب

(Succession) فتعني الاستيطان، بحيث تحل جالية محل جالية أخرى في بقعة من بقاع المدينة أو في المدينة بأسرها. ولعل أشهر من بحث في هذا الموضوع (Mckenzie)[٣٠] و(Duncan & Duncan)[٣١] و(Gibbard)[٣٢] و(Burgess)[٣٣] و(Darden)[٣٤] و(Deskins)[٣٥] و(Meyer)[٣٦] و(Rice)[٣٧] وكثير غيرهم. وقد وضع هؤلاء مراحل عدة لهذا التوطن والاستقرار. ولعل ما كتبه (Duncan & Duncan) بهذا الخصوص يرسم لنا الطريق لمحاولة تتبع خيوط الهجرة لهذه الجاليات إلى المدينة المقدسة، ونستطيع أن نضع ثلاث مراحل لدخول أي جالية واستيطانها في ضوء نظرية الاجتياح والتعاقب.

(30) Mackenzie, R.D. "The scope of Human Ecology" in E.W. Burgress (ed). The Urban Community, Chicago, University of Chicago Press, 1926.

(31) Duncan & Duncan, "The Negro Population of Chicago: A study of Residential succession", Chicago, University of Chicago Press, 1957.

(32) Gibbard, H. A. "The Status Factor in Residential Succession". The American Journal of Sociology, Vol. 46, P. 853-62.

(33) Burgess, E. W. "Residential Segregation in American Cities", The Annals of the American Academy of Political and Social Sciences, Vol. 140, November, 1928, P. 105-115.

(34) Darden, J. The Residential Segregation of Blacks in Medium Size Cities of Maickigan, Journal of Social and Behavioral Sciences, Vol. 22, (Spring) 1976.

(35) Deskins, D. Residential Mobility of Negros in Detroit 1837-1965, Ann Arbor, Mickigan, Dept. of Eeogranphy, University of Mickigan, 1972.

(36) Meyer, D. "The Changing Negro Residential Patterns in Lansing, Mickigan 1850-1869, Mechigan State. University, Unpublished Ph. D. Desecration, 1970.

(37) Rice, R. R. "An Analysis of Invasion - Succession and Areola differentiation as ecological process operative in the development of ecological variation within a Negro Community. A. thesis, Mackegan state university, East Lansing 1962.

المرحلة الأولى: وتبدأ بوصول بعض أفراد جالية من الجاليات إلى مكة، حيث تبدأ عملية البحث عن مناطق السكن والاستقرار، ضمن أحيائها المعمورة، أو في أطراف الأحياء المعمورة، ذات الإيجارات البسيطة. وقد يكون السكن مؤقتاً يتبعه بالتأكيد السكن الدائم إذا كان الهدف هو الاستقرار النهائي، وليس أداء الشعائر الدينية كالحج أو العمرة أو العمل المؤقت. وبالاستقرار النهائي لهؤلاء الرواد، تبدأ مرحلة الدخول إلى المنطقة المعينة داخل المدينة، أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم الاجتياح (Invasion). ويجب أن نلحظ أن المنطقة المختارة قد لا تكون مسكونة ابتداءً فيعمرها هؤلاء لأول مرة.

ومن استقصاء جوانب التاريخ المكي وجدنا أن أحياء شعب عامر وشعب علي والنقا والشامية والقرارة وحارة الباب والشبيكة وأجياد وأطراف المسفلة فيما يلي الحرم كانت مسكونة منذ بداية تاريخ مكة. لهذا فإن الجاليات التي استوطنت هذه المناطق كانت تشترك مع جاليات أخرى تعيش معها جنباً إلى جنب.

في حين نجد أن هناك أحياء أخرى من المدينة لم تكن مسكونة ابتداءً، أو أن إعمارها كان محدوداً، فعمرتها الجاليات القادمة لأول مرة. وينطبق هذا القول على أحياء السليمانية وأطراف المسفلة القصية وجرول والتنضباوي. وفي هذه الحالة يضيف المهاجرون رقعة أرضية جديدة، وبعداً سكانياً جديداً للمدينة القديمة. أما أولئك الذين استوطنوا القطاعات المعمورة؛ فإنهم لا يضيفون رقعة أرضية، ولكنهم يضيفون بعداً سكانياً جديداً فقط، وتستمر هذه المرحلة أي مرحلة الاجتياح أو الغزو، ما دام عدد المهاجرين الجدد إلى المنطقة لا يزيد عن (١٠٪) من حجم سكان منطقتهم.

المرحلة الثانية: وتبدأ حينما يصبح للجالية وجود محسوس على الرقعة الأرضية. فالنواة التي وجدت في المرحلة الأولى تأخذ في النمو والزيادة. وهنا تؤدي الهجرة دوراً كبيراً في ذلك. فإذا كان حبل

الهجرة متصلاً زاد عدد أفراد الجالية، واتسعت الرقعة المكانية التي يشغلونها. ويجد المهاجر الجديد الملجأ والملاذ في هذه المنطقة بين أقربائه وأبناء جلدته، لا سيما وأنه لا يعرف لغة المجتمع ولا تقاليده وعاداته، ولابد له من الاعتماد على معارفه وأقربائه في كثير من أمور حياته في المراحل الأولى لقدومه.

لهذا يفضل المهاجرون الجدد العيش بجوار المهاجرين القدامى من الجالية نفسها، وبهذا يزداد عدد أفراد الجالية، ويزداد تبعاً لذلك تأثيرهم في المجتمع المجاور. ويطلق الجغرافيون على هذه المرحلة اسم النماء والزيادة (Infiltration) حيث يتوالى قدوم المهاجرين تباعاً، وتبعاً لذلك تزداد أعدادهم، وفي هذه المرحلة يمكن أن يتراوح عدد أفراد الجالية بين (١٠-٥٠٪) من سكان المنطقة[٣٨].

المرحلة الثالثة: وتعرف باسم مرحلة التركز لأفراد الجالية (Concentration) حيث ترتفع نسبة هؤلاء ارتفاعاً يتزايد عن (٥٠٪) من سكان المنطقة، وهنا تبدو سيادة الأنماط الحياتية الخاصة بأفراد الجالية، حيث نجد الملابس التقليدية، والمطاعم التي تقدم الوجبات الوطنية، وكذلك استعمال اللغة الوطنية.

إن المراحل السابقة للاستيطان - يغلب على الظن - أن الجاليات التي استوطنت مكة قد مرت بها؛ لأن هذه الجاليات لم تأت فجأة بل جاءت هجرتها متدرجة على مدى سنين عدة. لذا فقد حلت هذه الجاليات بالتدرج محل عناصر سكانية قديمة كانت تسكن هذه المناطق. وقد بدأت كل جالية أقلية، ثم زاد عددها بالتدرج إلى أن سادت ربوع حي من أحياء المدينة المقدسة. وهذا ينقلنا إلى الجزء الثاني من النظرية، وهو التعاقب (Succession) الذي ينجم عن تغير اللاندسكيب الحضاري للمنطقة، إذ تحل جالية محل جالية أخرى، أو أن تصبح جالية أقلية بعد أن كانت تشكل الأغلبية في حي من

(٣٨) محمد محمود السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٥.

الأحياء. وعملية التتابع تحدث جنباً إلى جنب مع العملية الأولى، وهي عملية الاجتياح (Invasion)[٣٩].

وإذا ما استعرضنا واقع أحياء مكة المكرمة كما يصفها بيركهارت عام (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)[٤٠]، أو كما يصفها هورخرونية عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م)[٤١] نجد أن عملية التتابع في هجرة الجاليات قد غيّرت كثيراً في اللاندسكيب الحضاري، لمختلف مناطق مكة وأحيائها.

فمثلاً حي أجياد كان يسكنه شريف مكة وجنده وعبيده، وبعض الأشراف، وبطون قريش. وقد اندثرت هذه المورفولوجية لتحل محلها جاليات سكانية جديدة تستوطن كل جالية جزءاً من ذلك الحي. ففي أجياد المصافي وبئر بليلة نجد غلبة العناصر البخارية تليها العناصر الهندية. أما في أجياد السد فتأتي الأصول الهندية في المرتبة الأولى تليها الأصول الجاوية، ولا نجد من السكان الذين تحدث عنهم بيركهارت سوى منطقة صغيرة يسكنها بعض بطون قريش (شعبة قريش).

وإذا أخذنا الشبيكة والشامية والقرارة فقد كانت هذه الأحياء من أجمل أحياء مكة. ففي الشبيكة كانت منازل الأشراف، وعلية القوم من حكام مكة وأمرائها. أما الشامية والقرارة فكانت موطناً للعلماء والتجار والأغنياء، وخاصة القادمين من بلاد الشام ومصر. وقد تغير ذلك ليحل محل هؤلاء سكان من أصول جاوية وهندية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن بقية أحياء مكة القديمة، مثل: شعب عامر، والقشايشة، وحارة الباب، والنقا، وغيرها.

---

(٣٩) السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٠.

(40) Burckhardt, J. L. "Travels in Arabia" Libririe Du Leban, Beirut, 1972, PP. 180-219.

(41) Hurgroje, C. S. "Makka in the Later Part of the 19th century Leiden, Brill, 1970 m, PP. 6-15.

إن مفهوم التعاقب لا يقتصر على الصورة التي عرضناها آنفاً، وهي المرور بالمراحل الثلاث قبل أن تسود الجالية في إحدى مناطق المدينة. فهناك صورة أخرى تنجم عن سيادة الجالية على المنطقة ابتداءً، وخاصة إذا كانت تعمرها لأول مرة. وهنا تكون عملية التعاقب ليس لأفراد هذه الجالية، وإنما للجاليات التي تأتي بعدها، وتستوطن بجوارها، ثم تبدأ بالسيادة تدريجياً على المنطقة المعمورة.

ففي التنظباوي – على سبيل المثال – كان الأفارقة أول من سكن هذا الحي واستوطنه ابتداءً، لذا لم تمر الجالية الأفريقية في مكة بالصور الثلاث التي عرفناها سابقاً، وإنما شكل هؤلاء أكثرية منذ البدء غير أن المنطقة لم تقتصر عليهم وحدهم، بل جاورهم في السكن بعض العناصر من أصول يمنية وهندية وبرماوية. ولذا فإن القادمين الجدد بدؤوا المرحلة الأولى من مراحل الاجتياح، ولكنهم لم يصلوا إلى المرحلتين الثانية والثالثة؛ لأن عددهم ما يزال ضئيلاً أمام الوجود الأفريقي[٤٢].

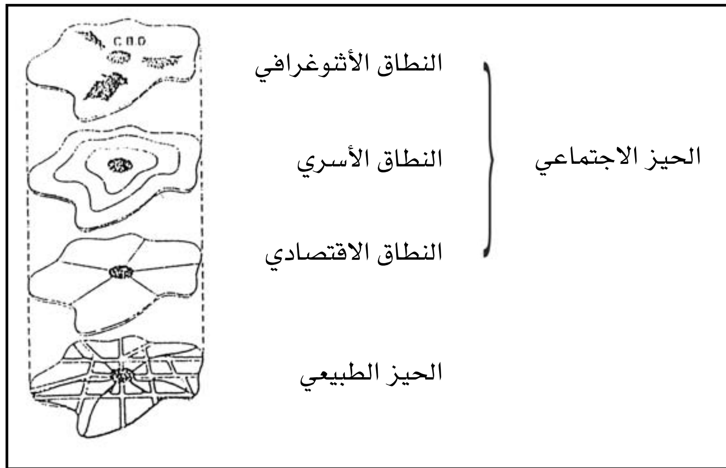
٢ - تكوين المناطق الاجتماعية المختلفة داخل المدينة:

تشكل المرحلة الثالثة من مراحل نظرية الاجتياح والتعاقب المرحلة الأولى في تكوين المناطق الاجتماعية داخل المدن (Social Areas). والمنطقة الاجتماعية هي حي أو منطقة أو قطاع من المدينة له صفات مميزة قد تكون إثنية عرقية، أو دينية، أو اقتصادية، أو أسرية بمعنى أن مفهوم المنطقة الاجتماعية مبني على تقسيم سكان المدينة إلى مناطق جغرافية تبعاً لأوضاعهم الاجتماعية – الاقتصادية.

لقد طور العالم شفكي (Shevky)[٤٣] وعدد من علماء الاجتماع الآخرون مفهوم المناطق الاجتماعية داخل المدن، ثم تلاهم الجغرافيون الذين أسهموا إسهامًا فاعلاً في تطوير هذا المفهوم، ونخص بالذكر

(٤٢) محمد محمود السرياني: مورفولوجية مكة الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٧-٥٨.
(43) Shevky & Bell, "Social Area Analysis", Stan Ford Unviersity Press, 1955.

كلاً من (Rees)[٤٤] و(Brian Berry)[٤٥] و(David Harvey)[٤٦]، وكثير غيرهم. وقد لخص شفكي المؤشرات التي تستخدم في تحديد النطاقات الاجتماعية بثلاثة مؤشرات هي المؤشرات العرقية، والمؤشرات الأسرية، والمؤشرات الاقتصادية. وهذه المؤشرات الثلاثة تشكل ما يعرف بالحيز الاجتماعي، ودراسة هذه المؤشرات الثلاثة أو بعضها يجب أن يكون ضمن حيز أرضي في المدينة، حيث يمكن تحديد الإطار الذي يشغله الحيز الاجتماعي على الرقعة الأرضية للمدينة (الحيز الطبيعي) (انظر شكل ١).



شكل رقم (١)

مكونات النطاق الاجتماعي في المدينة

(44) Berry, B. & Horton (eds). Geographic Perspectives on Urban Systems, Prentice Hall, 1970.

(45) Harvey, D. "Social Processes and Spatial Forms: an Analysis of the Conceptual Problems of Urban Planning" Papers of the Reigned Science Association, 25, 1970, PP. 47-69.

(46) Rees, P. H. "Concept of Social Space: Toward an Urban Social Gergraphy in Berry and Horton (eds)". Geographic Perspective on Urban Systems Printice Hall, 1970, PP. 306-399.

وليس هدف هذا البحث دراسة الأوضاع الأسرية، أو الأوضاع الاقتصادية، وإنما الهدف دراسة الناحية الإثنية المرتبطة بالجاليات الوافدة إلى العاصمة المقدسة؛ لمعرفة مدى انتشارها على مختلف أحياء مكة، وعلى تركز بعض الجاليات في بعض المناطق دون غيرها، وحتى وقت قريب عرفت بعض المناطق في مكة بأسماء من سكنها من الجاليات، وذلك لغلبة سكان الجالية على مناطق الحي المختلفة. ونجد من آثار ذلك جبل الترك، وجبل هندي، وحارة السليمانية (الأفغان)، وزقاق المغاربة، وزقاق البخارية، وغير ذلك من الأسماء التي تظهر الغلبة السكانية لجالية دون أخرى على منطقة معينة، الأمر الذي يدعو إلى إطلاق اسم الجالية عليها.

وفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م أجريت دراسة شملت (١٦٤٢) استبانة وزعت على أحياء مكة المكرمة آنذاك، البالغة (٢٤) حياً، وكان من بين أسئلة الاستبانة سؤال واحد هو: "من أين أتت الأصول الأولى للعائلة؟"، وكان السؤال مفتوحاً بحيث يسجل الشخص أي اسم يختاره وأي مكان قدم منه. وبتحليل الإجابة على هذا السؤال ظهر لنا أن العنصر الغالب من سكان هذه الأحياء كان على الشكل الآتي:

بتحليل الإجابة على هذا السؤال ظهر لنا العنصر الغالب على سكان الأحياء بمكة

١ - الأحياء المحيطة بالحرم من الشمال والشرق يغلب على سكانها الأصول الجاوية القادمة من إندونيسيا وماليزيا، وهذه الأحياء تشمل القشاشية، وشعب علي، والقرارة، والنقا، والشامية. تليها إلى الشمال منطقة السليمانية التي تعد منطقة تركز للسكان الذين تنحدر أصولهم من العناصر الأفغانية، ويجاورهم خليط من السكان من أصول جاوية وهندية ويمنية في شعب عامر.

أما الأحياء المحيطة بالحرم من الجنوب والغرب فتغلب على سكانها الأصول القادمة من شبه القارة الهندية. وهذه الأحياء تشمل

أجياد، والمسفلة، والشبيكة، وحارة الباب. ويتخلل هذه الأحياء جيوب من العناصر البخارية الذين يتركزون في أجياد المصافي، كما يوجد بعضهم في المسفلة. وكذلك العناصر القادمة من المغرب (المغاربة) الذين يسكنون في المسفلة والشبيكة على حد سواء.

والأحياء السابقة تمثل حدود مكة القديمة الممتدة على طول وادي إبراهيم، والجبال المحيطة به من المعلاة إلى المسفلة. وهذه الأحياء هي التي بقيت تشكل الرقعة التي تقوم عليها المدينة المقدسة منذ أقدم عصورها حتى توحيد المملكة العربية السعودية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري. وتغلب على سكان هذه المنطقة العناصر الوافدة من الخارج.

٢ - هناك نطاق آخر يحيط بهذا النطاق المركزي، ويشمل أحياء الملاوي والمعابدة في الشمال الشرقي، والعتيبية وجرول في الغرب، والتنضباوي والهنداوية في الجنوب الغربي. ونشاهد أن الأحياء الأربعة الأولى (الملاوي، والمعابدة، والعتيبية، وجرول) تغلب على سكانها العناصر القبلية من قبائل الحجاز وبعض البطون النجدية. أما المنطقة الجنوبية الغربية والتي تشمل التنضباوي والهنداوية فأغلب سكانها من أصول تنتمي إلى القارة الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى، ويتخلل هذه الأحياء جيوب من العناصر القادمة من اليمن (حضرموت) الذين يسكنون في أحياء جرول والجميزة وأطراف العتيبية والتنضباوي.

وهذه الأحياء الستة السابقة تشكل المنطقة الانتقالية. وقد تأخر إعمار هذا النطاق إلى ما بعد توحيد المملكة، وكانت هذه المناطق قبل ذلك تشكل المنتجعات وأماكن النزهة والاستجمام لسكان مكة، وكان يسكنها بعض قبائل البدو في بعض مواسم العام من أجل تأجير جمالهم للحجيج، أو من أجل نقل المحاصيل وبيعها. وقد أدت الظروف التاريخية دوراً مهمًا في إعمار هذا النطاق من قبل أبناء

البوادي الحجازية، وبعض القبائل النجدية على النحو الذي ذكرنا سابقاً. فوجدت أحياء جديدة، مثل: الملاوي والمعابدة والعتيبية، وتوسعت منطقة جرول لتشمل مناطق أكبر مما كانت عليه.

وإذا استثنيا منطقة التنضباوي والهنداوية فإن جميع أحياء هذا النطاق قد أعمرتها الهجرة الداخلية من مناطق المملكة المختلفة على عكس النطاق المركزي الذي أعمرته الهجرة الخارجية من مختلف بقاع العالم الإسلامي. ومن المعلوم أن هذه الهجرة حديثة لا ترجع في الغالب إلى أبعد من (٤-٥) عقود مضت.

٣ - يأتي بعد النطاق الانتقالي نطاق ثالث يشمل أحياء العزيزية والفيصلية في الشرق والزاهر والزهراء، والنزهة والرصيفة في الغرب، وقد ظهرت هذه الأحياء ابتداءً من عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، وذلك حينما بدأت التوسعة السعودية الأولى للحرم المكي الشريف التي فرضت إزالة الكثير من مساكن المنطقة المركزية، وقد تزامن ذلك مع قيام أمانة العاصمة المقدسة بتخطيط هذه الأحياء الجديدة في الفيصلية والعزيزية والنزهة والزهراء والزاهر والرصيفة، وتزويدها بالخدمات والمرافق، الأمر الذي شجع على الاستقرار بها. ولما كانت التعويضات التي أعطيت لهؤلاء عن مساكنهم القديمة مجزية بالإضافة إلى أن معظم هؤلاء ذوو دخول عالية؛ فقد فرضوا نمطاً سكانياً متميزاً عن جميع أحياء مكة السابقة، يتمثل في البيوت المبنية على شكل فلل تحيط بها الحدائق، وتضم في الغالب أثرياء مكة من ذوي الدخول العالية.

والملفت للنظر في هذه الأحياء، هو أن سكانها هم خليط من أصول عرقية مختلفة، ولا نجد سيادة لأي جالية على أخرى في أحياء الفيصلية والعزيزية والنزهة والرصيفة، في حين نجد زيادة في العناصر القبلية في أحياء الزاهر والزهراء، فرضها قرب هذه الأحياء من المناطق الأولى التي استقر بها هؤلاء في النطاق الثاني خاصة في العتيبية وجرول.

إن سكان هذه المناطق لا يدينون بوجودهم لا إلى الهجرة الخارجية من بقاع العالم الإسلامي، ولا إلى الهجرة الداخلية من مناطق المملكة، وإنما إلى الهجرة المحلية التي تتم داخل المدينة نفسها؛ وذلك من المنطقة المركزية والانتقالية إلى هذه المنطقة؛ لذا نجد أن سكان هذه المنطقة يمثلون جميع الأصول السكانية دون استثناء. (انظر جدول رقم ١).

جدول رقم (١)

أسماء الجاليات المسيطرة في أحياء مكة المختلفة

الحي	اسم الجالية المسيطرة
أجياد، الشبيكة، حارة الباب، المسفلة، القشاشية، شعب علي، الشامية، القرارة، النقا	الهنود
السليمانية	الأفغان
التنضباوي، الهنداوية	الأفارقة
الجميزة، المعابدة، الملاوي، جرول، العتيبية، الزهراء، الزاهر	العناصر القبلية
شعب عامر، الفيصلية، العزيزية، النزهة، الرصيفة	خليط (لا يوجد غلبة لأي أصول سكانية)

٤ - بعد اكتمال التوسعة السعودية الأولى التي استغرقت قرابة عقدين من الزمن وضعت أمانة العاصمة المقدسة خططا لتطوير المنطقة المحيطة بالحرم، التي تشمل النطاق المركزي، فأجري المزيد من الهدميات حول الحرم، لأغراض التجميل وفتح الطرق وشق الأنفاق وإنشاء مواقف السيارات، وإيجاد المساحات المكشوفة لأداء الصلوات، ووضع مزيد من الخدمات لتلبية الاحتياجات الوظيفية البارزة التي تقوم بها مكة المكرمة بصفتها عاصمة روحية للمسلمين يقصدها أعداد متزايدة من الحجاج كل عام، ثم جاءت التوسعة

السعودية الثانية (توسعة خادم الحرمين الشريفين) للمسجد الحرام، الأمر الذي فرض مزيداً من الهدميات وأعمال الإزالة في المنطقة المركزية؛ فقد استوعب الحرم مساحات واسعة من أراض المنطقة المركزية بحيث اختفت بعض الأحياء تماماً، لدخولها ضمن التوسعة (السوق الصغير، والقشاشية، وسوق الليل وغيرها)؛ مما قلل عدد سكان المنطقة المركزية.

لقد تزامنت أعمال تطوير المنطقة المركزية مع عدد من الأمور الأخرى، منها:

١ - زيادة الهجرة الداخلية من الأرياف والمناطق المجاورة إلى المدينة المقدسة.

٢ - قدوم أعداد كبيرة من الوافدين للعمل في مشاريع التنمية الطموحة التي تبنتها المدينة في ظل زيادة العائدات النفطية، وازدهار الوضع الاقتصادي.

٣ - التعويضات المجزية لأصحاب العقارات بعد تنازلهم عن ملكيتها، لأغراض تطوير المدينة المقدسة.

٤ - منح الأراضي التي أقطعتها الدولة للمواطنين.

٥ - القروض التي منحتها الدولة للمواطنين؛ لأغراض إنشاء المساكن عن طريق صندوق التنمية العقاري.

٦ - السيولة النقدية لدى المواطنين الناجمة عن انتعاش الحركة الاقتصادية في المدينة بشكل خاص والمملكة بشكل عام.

أدت العوامل السابقة إلى زيادة رقعة المدينة المقدسة، فقد أسهم العاملان الأول والثاني في زيادة عدد السكان زيادة كبيرة، فرضت حاجة ماسة لمساكن جديدة، لإيواء هذا العدد الكبير من الوافدين الجدد إلى المدينة المقدسة. أما العوامل الأخرى فقد شجعت المواطنين على الإقبال على سوق العقار، وبناء المساكن؛ إما لأغراض السكن أو الإيجار أو كليهما.

ونجم عن ذلك أن شهدت المدينة طفرة في العمران فاقت كل التوقعات، وظهرت امتدادات سكنية جديدة في أحياء العزيزية والزهراء والرصيفة والشرائع والتنعيم وغيرها، وتعدت مكة الجبال المحيطة بها، وانتشر العمران على طول الطرق الرئيسة للمدينة المقدسة.

فقد امتد العمران على طريق المدينة شمالاً لأكثر من (٢٢كم)، ووصلت مخططات الأراضي إلى بلدة الجموم. ومن ناحية الغرب اتسعت مناطق التنضباوي والهنداوية غرباً على طريق جدة السريع إلى الرصيفة ومخطط البركة، وعلى طريق جدة القديم باتجاه حدا، وأقيمت مخططات في بلدة بحرة. وفي الجزء الجنوبي امتد العمران إلى أكثر من (١٥كم) على طريق الليث واليمن وجنوب المسفلة. ومن الناحية الجنوبية الشرقية شمل العمران كل منطقة العزيزية، وتعدى الطريق الدائري الخارجي إلى العوالي وحدود المشاعر المقدسة على طريق الطائف - الهدا، وغطى منطقة الشرائع بأكملها، على طريق الطائف - السيل. ويمكن عدّ هذه المناطق الضواحي الحديثة لمدينة مكة، وقد استوعبت هذه الضواحي حركة النزوح من المنطقة المركزية والمنطقة الانتقالية، كما شكل الكثير منها مناطق سكن للوافدين الجدد.

والذي يهمنا هنا في هذا البحث أن هذه الأحياء لن تصطبغ بأي صبغة إثنية؛ لأنها تحوي خليطاً سكانياً قدم من مختلف مناطق وأحياء مكة الأخرى، وخاصة أحياء المنطقة المركزية والوسطى. ولذا ستكون خصائصها الإثنية شبيهة بأحياء العزيزية والفيصلية والزهراء والرصيفة التي لم نلمس فيها وجودًا محسوساً لجالية بعينها، بل كان سكانها خليطاً يشمل الفئات كافة.

٣ - مرحلة الاندماج الكلي:

لدى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والجغرافيا العديد من المصطلحات التي تشير إلى تأقلم واندماج وذوبان الجاليات الوافدة في المجتمع المضيف، فقد طور علماء الاجتماع الأمريكيون مفهوم بوتقة الانصهار (Melting Pot)؛ ليشير إلى أن المدن أشبه بالوعاء الذي تمزج فيه مجموعة من الأشياء مزجاً جيداً، بحيث يتكون في النهاية خليط متجانس من جميع هذه الأشياء، يمثل مادة جديدة لا تحمل خصائص الأشياء التي تشكلت منها أولاً.

وقد طبق علماء الاجتماع الأمريكيون هذا المفهوم على المهاجرين الذين وفدوا إلى العالم الجديد من مختلف مناطق القارة الأوروبية، وهم يحملون قيماً وعادات وتقاليد وأعرافاً وألواناً ومذاهب ولغات مختلفة. هؤلاء جميعاً حينما يدخلون البوتقة الأمريكية ينصهرون فيها؛ ليشكلوا في النهاية المجتمع الأمريكي الجديد، الذي يختلف بقيمه وعاداته وتقاليده عن أي من المجتمعات التي وفد منها هؤلاء المهاجرون.

وبجانب هذا المفهوم ظهر مصطلح التأقلم الثقافي (Acculturation)، وهو مصطلح يشير إلى أن أي مجموعة بشرية تأخذ بعض العناصر من ثقافة مجموعة أخرى إذا حصل احتكاك بينهما. وقد استعمل علماء الأنثروبولوجيا الذين طوروا هذا المفهوم؛ ليشير إلى التغيرات التي تطرأ على الجاليات المختلفة حينما تعيش معاً في مجتمع واحد، الأمر الذي ينجم عنه تغيير في المعطيات الحضارية والثقافية لإحدى هذه المجموعات أو جميعها[٤٧].

(47) Mahammad Siryani, "Residential Distribution, Spatial Mobility and Acculturation in an Arab - Muslim Community" Ph. D dissertation, Michigan State University, 1977, PP. 136-140.

أمـا المفهـوم الثـالث فهـو مفـهوم الانـدمـاج (Assimilation)، ويعني تفـاعل الجـاليـات الإثنيـة ذات الأصـول العـرقيـة والدينيـة المختلفـة مع المجـتمع المضـيف دون أن تشـعـر هذه الجـاليات بـأدنى حـرج بسـبب الطابـع الإثني لهـا . والاندمـاج الكلي يعني أن تذوب الفـوارق بين هذه الجـاليات والمجـتمع المضيف بحـيث تتـبنى هذه الجـاليات اتجـاهات وأحاسيس هذا المجتمع، ويعدها المجتمع المضيف جـزءاً منه، وتشترك معه في معطيات حياته الثقافية والحضارية العامة[٤٨].

وقـد عـرّف معـجم العلوم الاجـتمـاعيـة الاندمـاج بأنه العـمليـة التي يصبح فيهـا الفـرد أو الجـمـاعة متمـاثلاً ومشـابها للمـجتمع المضـيف، وذلك من خـلال اندمـاج الأقليـة عن طـريق الاتصـال المتـبـادل. ويكون ذلك بالطبـع حينمـا تـختفي العـادات والقيم القـديمة للجـاليـة، وتحل مـحلها عـادات وقيم جـديدة، وذلك في عملية تغيـر تدريجي تصل في النهاية إلى الذوبان الكلي[٤٩].

لقـد حدد (Gordon)[٥٠] العديد من المتغيـرات التي يقاس الاندمـاج من خلالها، وأهم هذه المتغيرات هـي:

١ - تغير الأنماط الثـقافية لدى الجـاليـة الوافدة نحـو أنمـاط المجتمع المضيف.

٢ - مشـاركة الجـاليات في الأندية الثـقـافيـة والاجتمـاعيـة للمـجتمع المضيف.

٣ - الزواج المختلط بين أفراد الجالية والمجتمع المضيف.

٤ - غياب التعصب ضد أفراد الجاليات الوافدة من قبل المجتمع المضيف.

---

(48) Dacquelyn Bass, "The Southwest Spanish - Speaking Minority: A Study of Assimilation and boundary Maintenance", Michigan State University, Unpublished M. A. thesis, 1970, P. 10

(49) Dictionary of Social Sciences, 1964, P. 38.

(50) Lleard Gordan, "Assimilation in American Life", New York Ford University Press, 1964m, P. 70-71.

٥ - غياب التمييز العنصري من قبل المجتمع المضيف.

٦ - انعدام صراع القوى بين أفراد الجالية والمجتمع المضيف.

٧ - حرية الجالية في السكن والانتقال من وإلى أي بقعة في المدينة دون أن تمارس عليها ضغوط معينة من المجتمع المضيف.

إن المصطلحات الثلاثة التي استخدمها الجغرافيون وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيها الكثير من التداخل فبوتقة الانصهار (Melting - Pot) في حقيقة الأمر هي الاندماج الكلي (Assimilation) مع فارق واحد أن بوتقة الانصهار تحتاج إلى وقت طويل حتى تتغير. ومع أن علماء الاجتماع قالوا بأن الجيل الثالث للجالية تختفي لديه قيم المجتمع القديم، وتحل محلها قيم المجتمع الجديد إلا أن ذلك لم يكن على إطلاقه؛ فقد أثبتت الدراسات التي أجريت على الجاليات الأمريكية أن الجيل الثالث يحتفظ ببعض قيم وتقاليد وعادات المجتمعات التي وفدوا منها مع غلبة طابع القيم الجديدة المتبناة.

أما مصطلح الاندماج الثقافي (Acculturation) فهو لا يعدو كونه أحد مراحل الاندماج الكلي، المتمثل في تغيير الأنماط الثقافية لدى الجالية الوافدة نحو أنماط المجتمع المضيف.

وقبل أن ننظر في معايير الاندماج الكلي عند (Gordon) لابد لنا أن نذكر أنه بالرغم من وجود الشبه الكبير بين تيارات الهجرة الوافدة إلى مكة، وتيارات الهجرة الوافدة إلى المدن الأمريكية، بحيث تلقت مكة - كالمدن الأمريكية - خليطاً سكانياً يمثل العديد من دول العالم وشعوبه، غير أن الفرق يكمن في أمرين أساسيين بين تيارات الهجرة المكية وتيارات الهجرة الأمريكية هما:

١ - أن تيارات الهجرة الوافدة إلى مكة تقتصر على المسلمين فقط دون غيرهم، وهذا يبعد نزعة التعصب الديني سواء عند الجاليات أو عند المجتمع المضيف.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون
الدارة

٢ - أن نظرة التمييز العنصري والعرقي التي اتصف بها المجتمع الأمريكي لم يكن لها نظير في العاصمة المقدسة، لذا لم يكن اللون أو الجنس في يوم من الأيام مشكلة بالنسبة إلى الوافدين إلى المدينة المقدسة، كما كان عقبة كأداء في المدن الأمريكية. ويرجع ذلك إلى أن المسلمين عموماً ليست لديهم هذه النزعة العرقية.

وكان من السهل على أفراد الجاليات الوافدة إذا تخطوا حاجز اللغة الذي يقف دائماً حجر عثرة بين أفراد الجاليات والمجتمع المضيف. وبمجرد إتقان اللغة العربية - وهي لغة المجتمع المضيف - يشعر المرء بأنه جزء من هذا المجتمع، فأبواب المشاركة والأنشطة الثقافية والاجتماعية مفتوحة، ولا توجد أي صعوبة في الزواج الذي يعد من العناصر المهمة في تأقلم الجاليات المختلفة. والمجتمع المكي مجتمع منفتح لا نجد فيه التعصب والكره للأجناس الأخرى. كما أن المجتمع لا يمكن أن يمارس ضغوطاً معينة مهما كان نوعها على أفراد أي جالية وفدت إلى المدينة المقدسة.

إن الشيء الوحيد الذي يقلل من فرص الاندماج مع المجتمع المضيف هو تقوقع الجاليات ضمن أحياء خاصة بهم، فوجود أبناء جالية ما، وتركزهم في حي معين له آثار سلبية على الاندماج، منها:

١ - عدم الاختلاط الكلي مع المجتمع المضيف.

٢ - استعمال اللغة الوطنية في التعامل اليومي.

٣ - الاحتفاظ بالمظاهر الاجتماعية المختلفة للجالية، كاللباس الوطني، والطعام الوطني، وزيادة فرص الزواج من أفراد الجالية.

٤ - عدم المشاركة في فعاليات ونشاطات الحياة المختلفة في المجتمع المضيف.

والسؤال المطروح الآن هو: هل تخطت الجاليات المكية هذا الحاجز الأخير الذي يفضي إلى الاندماج الكلي في المجتمع المحلي؟

وإذا كان الجواب بالنفي، فما العوامل التي تساعد على الإسراع في هذا الاندماج؟

إن ديناميكية تطور المدينة المقدسة ساعدت على إزالة الحواجز، وعلى اختلاط السكان، وعلى زوال بؤر الجاليات من معظم أجزاء المدينة، وخاصة المنطقة المركزية التي كانت منطقة التركز الأول للجاليات الوافدة من الخارج، فتوسعات الحرم المكي الشريف، وتنظيم وتطوير المنطقة المحيطة به، وتغير استعمالات الأرض حول الحرم للأغراض التجارية، وأغراض سكن الحجاج قد عمل على إزالة الكثير من مساكن المنطقة المركزية من مختلف الأحياء المحيطة بالحرم كأجياد والقشاشية والشامية والمسفلة والسليمانية، وبموجب تقديرات أمانة العاصمة المقدسة فإن المنطقة المركزية ستنخفض فيها أعداد السكان إلى الحد الأدنى، لغلبة الطابع التجاري والخدمي عليها. ومن المعلوم أن هذه الأحياء هي البؤرات التي يوجد فيها الوافدون، مما يعني زوال التركز السكاني للجاليات الوافدة من وسط المدينة، الأمر الذي يفضي إلى هجرة هؤلاء إلى المنطقة الثالثة أو الرابعة، التي تتصف أساساً بأن سكانها خليط من جميع عناصر مكة المختلفة.

ديناميكية تطور المدينة المقدسة ساعدت على إزالة الحواجز، وعلى اختلاط السكان

وهكذا أسهم تطوير المدينة في زيادة فرص الاندماج السكاني في المنطقة المركزية، أما مناطق تركز الجاليات في النطاق الثاني، وهو نطاق المنطقة الانتقالية، فتستمر غلبة العناصر القبلية في الملاوي والمعابدة والعتيبية، كما تستمر غلبة العناصر الوافدة من أفريقيا في التنضباوي والهنداوية، غير أن قرب هذه المناطق النسبي من الحرم المكي الشريف، وظهور الأسواق المختلفة على طول الشوارع الرئيسية لهذه المناطق سيقلل من التركز السكاني فيها. وتشير تقارير المخطط الرئيس للعاصمة المقدسة أن عدد سكان الهنداوية والطندباوة

سينخفض إلى (٦٩٪) مما هو عليه؛ نتيجة أعمال التنظيم والتطوير المختلفة، ويمكن القول: إن الجاليات كافة التي استوطنت العاصمة المقدسة قد اندمجت في البوتقة المكية، تلك البوتقة التي ظهر جميع سكانها مكونين المجتمع المكي المعاصر الذي جمع إلى طبعه كما قال أحدهم: "وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وسكون الصيني، وحدة المغربي، وبساطة الهندي، وصلابة الشركسي، وحركة السوري، ولون الحبشي".

الخلاصة:

إن العرض التحليلي السابق لموضوعات الهجرة، ومراحل الاستيطان، والتأقلم أظهر أن سكان مكة المكرمة تنحدر أصولهم من جاليات تنتمي إلى جميع بقاع العالم الإسلامي، موزعة بين الأصول الهندية والجاوية والأفغانية والبخارية والتركية والمصرية والشامية والمغربية واليمنية والأفارقة والعناصر القبلية، بالإضافة إلى سكان مكة المكرمة من الأشراف والسادة والقريشيين.

والمتتبع لتاريخ الاستيطان في الحيز المكاني للمدينة المقدسة يجد أن مراحل الاستقرار تبدأ بالدخول إلى المنطقة (الاجتياح) (Invasion)، ثم النماء والزيادة (Infiltration)، ثم التركيز (Concentration)، وما تبع ذلك من حلول جالية محل جالية أخرى على مدى زمني معين (التتابع) (Succession).

إن وصول الجالية إلى مرحلة التركز تساعد على وجود المناطق الاجتماعية في المدينة (Social Areas)، والمناطق الاجتماعية هي أحياء تتصف بغلبة جالية معينة على سكانها، بحيث تسود أنماط هذه الجالية الاجتماعية من حيث الملابس والطعام والعادات الاجتماعية، وحتى استعمال اللغة الوطنية في بادئ الأمر.

تعرض هذا التركز السكاني وتكون المناطق الاجتماعية للعديد من المؤثرات التي ساعدت على تغييره، أهمها: مشاريع التنمية المحلية لقطاعات المدينة المختلفة، ثم توسعات الحرم المكي الشريف المتعاقبة التي ساعدت على انتقال الناس من وسط المدينة إلى أطرافها، فهجرت الأحياء القديمة، وتقلص عدد سكانها، وكثرت عمليات الهدم والإزالة لبعض المباني، حيث اقتضتها عمليات التطوير للمدينة المقدسة، وذلك ساعد على انتقال السكان إلى الأحياء الجديدة التي تعهدتها السلطات بمزيد من الاهتمام والرعاية، وأهم مميزات هذه الأحياء أنها خليط سكاني يشمل الأعراق والجاليات المختلفة كافة سواء أكانت وافدة من الخارج، أو قادمة من الداخل؛ مما أضفى وحدة سكانية واحدة، قوامها الدين الإسلامي، وعمادها اللغة العربية، والتقاليد والعادات العربية.